اللـــون في شعـر أبي تمـام

المدرسة الدكتورة
نضال ابراهيم ياسين
جامعة البصرة - كلية التربية

مقدمـــة :

يقول الجاحظ في تعريفه الشعر بأنه : " صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير " (1) وعليه فهناك علاقة بين الشعر وفن الرسم ، علاقة جمالية صميمة ليست طارئة ولا مستحدثة بل اقتضتها ضرورة الفن ، وكانت إحدى نتائج هذه العلاقة " اللون " .

يشكل اللون جزءا مهما من خبراتنا الإدراكية الطبيعية للعالم المرئي ، واللون لا يؤثر في قدرتنا على تمييز الأشياء فقط بل ويغير مزاجنا وأحاسيسنا ويؤثر في تفضيلاتنا وخبراتنا الجمالية بشكل يكاد يفوق أي بعد آخر يعتمد على حاسة البصر أو أية حاسة أخرى (2)

ويرتبط ادراكنا للألوان بحاسة البصر فبواسطته نستطيع إدراك الألوان وتمييزها ، " فقد منحت هذه الحاسة الإنسان القدرة على إدراك الجمال الزاهي ، ووهبته القابلية الدقيقة على تحسس هذه الكائنات الملونة والموجودات الطبيعية النضرة ، ولابد أن تكون الألوان أقرب المحسوسات لهذه الحاسة ، وأكثرها تميزا في مدلولاتها " (3)

ومعنى هذا أن الألوان شأنها شأن الأشكال تدخل ضمن الصور المرئية أو البصرية ومع هذا فإن هناك فرقا بينهما يتعلق هذا الفرق بالوصف اللغوي لكل منهما كما يرى " لويس هورتيك" إذ يقول : " وفي العالم المرئي لابد لنا من أن نميز بين الأشكال عن الألوان ، إذ تصف اللغة الأشكال وصفا أدق وأوضح من وصفها الألوان " (4)

وفي الشعر استخدم الشعراء الألوان مثلما استخدموا الأشكال لتوضيح الصور ورسمها ، كما استخدموها رموزا لمعان مختلفة ، فاللون من العناصر الأساسية في عالم الحسيات ، فنحن لا نستطيع أن نصف الأشياء التي نعيش بينها ونجدها حولنا من غير التعبير عن ألوانها فاللون - من جهة – يميز أحيانا بين الأشياء ، وهو من جهة ثانية من الخصال الأكثر لفتا

للنظر ، لذلك كان استخدام اللون في الشعر بشكل عام وفي الشعر العربي بشكل خاص - باعتبار أن معظمه كان شعرا وصفيا- استخداما كبيرا ومتنوعا .

" فالشعر ينبت ويترعرع في أحضان الأشكال والألوان سواء أكانت منظورة أم مستحضرة في الذهن ، وهو وسيلة لأستحضار هذه الأشكال والألوان في نسق خاص وتصورات تستمتع الحواس باستحضارها . (5)

والشاعر يعطي تحديدا لفظيا لذلك الشيئ الذي ربما يصوره الرسام بالخط واللون (6)

ـ اللون في الشعر العربـي :

وللسؤال عـن اللون والتعبير عنه في الشعر العربي فإن الشاعر العربي ومنذ عصر ما قبل الإسلام استخدم الألوان بكثرة ليعبر بها عن ما يريد العبير عنه من صور أو ليستعين بها في نقل صوره ــ وهي في الغالب صور وصفية ــ الى السامع أو القارئ إذ كان اللون إحدى وسائل الشاعر لتوضيح الصور ورسمها لأن الصورة كما يرى الدكتور نوري حمودي القيسي بشكلها المحسوس لا يمكن نقلها الى السامع أو القارئ وهي على هيئتها ، فنقلها على مثل هذا الحال يعني نقل صورة غـير واضحة أو متغيرة (7)

ومن هنا كان الشاعر يميل الى إضافة الألوان المعروفة والمحسوسة في عالمه الى محسوساته لتتجلى معالمها وتتحدد أبعادها ..... ومن ثم تتكشف الزوايا الغامضة في هذه المحسوسات فتبدو ملونة الخطوط زاهية الألوان .

ويذهب الدكتور نوري القيسي الى أن استخدام الشعراء للألوان لم يقف عند حد تخطيط الصورة وإبرازها وإنما جعل الصورة محفوفة بإطار من الأبعاد المتحركة بذاتها تضفي عليها الألوان ميزة تفتقر اليها قبل الإضافة (8) .

إن جوهر اللون بوصفه مقتربا جماليا خالصا يتأسس من خلال خبرة سايكولوجية قائمة على أساس فسلجي تعزز المشهد بقيم جمالية جديدة تزيد من مستويات فاعليته الفنية والتعبيرية . (9)

إن اللون يعطي الألفاظ والتراكيب في النص الشعري دلالات قد تكون سلبية أو إيجابية ، وربما يقلب دلالاتها الإيجابية الى سلبية وبالعكس بحكم الحضور القوي للون في الصورة ، إذ تستطيع الإمتدادات اللونية إكساب الصورة دلالات جديدة بعد تغيير مضامينها المعهودة حتى تصبح ظلا للنتيجة اللونية التي أراد الشاعر تحقيقها بقلب الموازين والدلالات للتراكيب عبر هيمنة اللون على الصورة .

وهكذا تتعدد وظائف اللون في صور الشعراء وتختلف هذه الوظائف تبعا لقدرة الشاعر على توظيف الألوان واستغلالها بالشكل الذي يحقق أهدافه ، فعند بعض الشعراء يتجاوز اللون بعده الشكلي أو المباشر الى قدرة تعبيرية تنتج موقفا عميقا مثقل بالدلالات الموحية سواء أكنت نفسية أم حسية ، أي أن الشاعر يستغل اللون بكامل دلالاته المباشرة وغير المباشرة ، وهذه بدورها تعتمد على قدرة الشاعر وثقافته ، وعمق إدراكه لدلالات الألوان .

إن للألوان دلالات اجتماعية ونفسية متعارفا عليها عند الناس ، فاللون الأبيض مثلا يشير الى النقاء والعفة ، والصفاء ، والون الأخضر يشير الى الأمل ، والنعمة والخصب ، والخير ، والكرم ، واللون الأسود يدل على الظلام ، والظلم , والقهر ، والجدب ، واللون الأحمر يرمز الى الدم ، والحرب ، والنار ..... وهكذا .

وكل هذه الدلالات عرفها الشعراء العرب ، وعبروا عنها في شعرهم ، إذ ن فقد أدرك الشاعر العربي خاصية الألوان ودلالاتها ، وقدرتها على التعبـــير فاستعملها بكثرة في شعره وفي كل الأغراض وبالإيحاءات التعبيرية للألوان جميعها .

لقد تنوع استخدام الشاعر العربي للون ، وكان استخدامه له مستمدا من واقعه وبيئته ، ومن خبراته ومواقفه وانطباعاته .

اللـون في شعر ابي تمـام .

استعمل ابو تمام الألوان وأبدع في استعمالها في اغراضه الشعرية كلها ولاسيما في وصفه للطبيعة ، إذ كانت قصائده ومقطوعاته في وصف الطبيعة لوحات طبيعية تتوزع فيها الألوان ، وتتعدد فتساهم في في نجاح الصورة وجماليتها ، وتسهيل إدراكها ، وتعميق تأثيرها " ..... فحسه الرائع بجمال الطبيعة ، وتلك الريشة القديرة البارعة في التصوير، وذلك الإدراك للألوان والأضواء كل اولئك كونت صورة للربيع لم تحظ العربية بمثلها قبل ابي تمام او بعده ..... " (10)

ولنطالع هذه اللوحة من لوحاته وهو يصف فرس ممدوحه ، وقد نثر فيها ألوانا مختلفة إذ يقول : (11)

نعـم متاع الدنيا حباك بـــه أروع لا جـــيدر ولا جبـــس
أصفر منه كنـــه محـــة ال بيضة صاف كأنه عجـــــس
هاديه جـــذع من الأراك ومـا خلف الصلا منه صخرة جلـــس
يكاد يجري الجادي من ما عطـفيه ويجني من متنـه الـــورس

هذب في جنسه ونال المـــدى بنفسه فهو وحـده جنـــس

.....

وهو إذ ما رمى بمقلتـــه كانت سخــاما كأنها نقـــس

وهو إذا ما أعرت غـرتـه عـينيك لاحت كأنــها بـــرس

ضمـخ من لونه فجاء كـأن قـد كسفت في أديمه الشمـــس

ويلاحظ أن أبا تمام برز بعض الألوان حين ركز عليها في صورته للفرس ، وجاء بمشبهات عـديدة لها كاللون الأصفر مثلا إذ جعل فرسه ذات لون أصفر كمح البيضة مرة ، وعجس القوس المصقول مرة أخرى ، وعـنقه أصفر أملس كجذع الأراك ، وما يجري من عـنقه من عـرق أصفر كأنه الزعـفران والورس الأصفر .

ونجـد للون الأسود حضورا في لوحته كذلك إذ جعل عـيني الفرس حالكتي السواد كلون المداد الأسود ، وغـرته بيضاء ناصعة كالقطن .

وفي وصفه للربيع تطالعنا هذه اللوحة التي ازدحمت بألوان الأزهار ، فمنها الأحمر، ومنها الأصفر الفاقع ، ومنها الأبيض ، ومنها الساطع وكلها انبثقت من النبات الأخضر فكانت من دلالات قـدرة الخالق ، وبديع صنعه ، يقـول من قصيدة له في المدح : (12) .

حتى غـدت وهـداتها ونجادها فـئتين من خلــع الربيـع تبخـتـر

مصفرة محمرة فكأنـــهـا عـصب تيـمن في الوغـى وتمضر

من فـاقع غـض النبات كـأنه در يشـقـق قبـــل ثم يـزعفـر

أو ساطع في حمـرة فكأن مـا يـدنو إليه من الهـواء معصـــفر

صـنع الذي لولا بـدائع لطفه ما عـاد أصفر بعـد إذ هو هو أخضر

فهي لوحة زاهية بالألوان الجميلة ، فقد تخيل الشاعر الأرض في الربيع وهي تختال ببرود ملونة باللونين الأصفر والأحمر كرايات اليمن الصفر ، ورايات مضر الحمر ، واللون الأبيض لا يلبث أن يسفر عن لون فاقع الصفرة كأنه در أبيض تشقق ثـــم ضمخ بالزعفران الأصفر ، ويضيف الشاعر الى ألوانه صفات تجعلها أكثر تعبيرا وأيسر إدراكا كا لساطع ، والفاقع ، والمعصفر ، والمزعـفر .

ويلاحظ أن الألوان هنا مثلت دلالاتها اللونية التقليدية ، ولم تتجاوزها الى غيرها ، ولكن قد يخرج اللون من دلالته التقليدية هذه الى سواها فيصبح رمزا ، وتصبح له قـدرة

تعبيرية جديدة ، أو حالة معينة يريد الشاعر التعبير عنها ، وقد وجدنا ذلك عند أبي تمام من خلال استعماله لـ (التدبيج) (13) للتعبير عن الأفكار والرمز للحوادث ، والمواقف المختلفة . يقول أبو تمام في رثاء ابن حمديس الطوسي ، وقد قتل في الحرب : (14) .

تردى ثياب الموت حمرا فما دجى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

فقد جعل ثياب الموتى حمرا أول الأمر للتعبير عن القتل ، ثم ما لبث أن جعلها خضرا للتعبير عن الرضا والثواب والشهادة ، فهي الطريق الموصل الى الجنة حيث الثياب الخضر السندسية . وقوله كذلك وقد عن الحياة والموت باللونين الأبيض والأسمر : (15)

إن الحمامين من بيض ومن سمر د لو الحياتين من ماء ومن عشب

وقوله وقد رمز الى أحداث الدهر السعيدة ، والحزينة باللونين الأبيض والأسود : (16)

أما وأبي الرجاء لقد ركبنا مطايا الدهر من بيض وسود

ويقول في التعبير عن أحوال أذربيجان : (17)

جلوت الدجى عن أذربيجان بعدما تردت بلون كالغمامة أربد

وكانت وليس الصبح فيها بأبيض فأمست وليس الليل فيها بأسود

لقد استخدم أبو تمام الألوان استخدامات مختلفة ، ووظفه توظيفات عدة نستطيع أن نجملها بما يأتي :

1- استخدام اللون لخدمة الوصف وإكمال الصورة ، فلا تكون له دلالة معينة غالبا ، فهو لا يأتي وصفا لمعنى ، أو رمزا لشئ أو حالة ، وإنما يستخدمه استخداما تصويريا مباشرا ، ومثل ذلك قوله يصف أزهار الرياض : (18)

كساك من الأنوار أصفر فاقع وأبيض ناصع وأحمر ساطع

فقد تعددت ألوان الأزهار في الروض واختلفت ، فمنها الأصفر، والأبيض والأحمر ، وقد استطاع الشاعر أن يصف كل لون بما يوضحه ويعطيه قدرة تعبيرية إضافية ، ويمنحها قدرة ادراكية جديدة فالأصفر فاقع ، والأبيض ناصع ، والأحمر ساطع ، ومثل هذا الاستخدام نطالعه في وصفه للسحاب ، إذ يحدد ألوانها أولا فهي " دهم " وبعد ذلك يرسم صورة طريفة لتلك السحب فيقول : (19)

دهم إذا ضحكت في روضة طفقت عيون نوارها تبكي من الفرح

فاللون هنا ليس له دلالة خاصة في الصورة ، لكن الشاعر وظفه لخدمة الصورة ، وتحديد لون السحب الممطرة فحسب .

وقـد ورد ذكر مثل هذا الاستخدام حينما جعل أبو تمام ألوان : الأصفر والأحمر ألوانا لأزهار الربيع فقال : (20)

مــصفرة محمرة فكأنـها عصب تيمن في الـوغــى وتمضر

وللغمام يستعمل اللون " الكدري " وهو لون مخلوط من سواد وبياض ، وفي ذلك يقول : (21)

سارية لم تكتمل بغمـــض كـدراء ذات هـطلان مــحـض

وفي فرس الممدوح يحدد ألوانا متعددة ، وبدرجات مختلفة منها اللون الأحمر والأحوى ، والأدهــم ، والأكـمــت ، وكل هذه الألوان يمكن إدراكها في قوله : (22)

وأحمر منهــا مثل السبيكة أو أحوى بــه كاللمى واللـعــس
أو أدهم فيه كمتة أمـــم كأنه قطـعة من الغـــلس
مبتــل متن وصهوتين الـى حوافر صلب له طـــــس

ويحاول الشاعر إعطاء فكرة واضحة عن لون فرس الممدوح في أحواله المختلفة ، فيقربها الى الأذهان من خلال إضافتها الة مشبهات مادية تدرك بسهولة فالأحمر مثل السبيكة ، والأحوى مثل اللمى واللعس ، والأدهم فيه كمتـــة كقطعــة الغلس . وفي وصف النساء يحدد لونا لبشرتـهن وهو " الأبيض " فيقول : (23)

بيــض يـجـول الحسن في جنباتها والملـح بين نضائـر أشبــاه

ويقول : (24) .

بيضاء يصرعــها الصبا عبث الصبا أصـلا بــخوط البانة الأمـلود

ويلاحظ أن الشاعر هنا يصف بياض البشرة حينما يتغـزل بمن يحب شأنه بذلك شأن من سبقه من الشعراء ، ربما للتعبير عن انتماء حبيبته الى الطبقة المرفهة في المجتمع لأن بياض البشرة عـلامة المرأة المترفة الغنية ، الحرة التي لا تضطرها أحوال العيش الى الخروج والتعرض للشمس .

2 ـ جعل اللون صفة لمعنى من المعاني وهذا هو الشائع لديه ، فكل لون له معنى أو دلالة ، أو يشير الى صفة معنوية واضحة ، فهو حينما يذكر اللون الأبيض يستحضر معنى العطاء ، والخير ، والتفاؤل ، لذلك يجعله لونا لممدوحه إذ يقول : (25)

ما زلت أرقب تحت أفياء المنى يوما بوجه مثل وجهك أبيضا

ومرة أخرى جعل البياض صفة لمواهب الممدوح وعطاياه الثرى فقال : (26)

نبتت على مواهب فيك بيض كما نبت الحلي على الولي

والبياض كذلك صفة لمعنى الكرم فالأيادي بيضاء في قوله : (27)

وغيري يأكل المعروف سحتا وتشحب عنده بيض الأيادي

وقوله وقد جعل الخطوب والأيام تبيض بفعل جود الممدوح ، وكرمه ، فاللون الأبيض يصلح أن يكون صفة للأحداث الجليلة المشرقة : (28)

بجودك تبيض الخطوب إذا دجت وترجع عن ألوانها الحجج الشهب

ومثله وقد جعل البياض قرين المعالي التي تسعى الرجال لنيلها بوجوه مبيضة . فقال : (29) .

ما ابيض وجه المرء في طلب العلى حتى يسود وجهه في البيد

ويلاحظ أن السواد ورد هنا للدلالة على معان منافية لمعاني البياض ، والبياض ورد عنده مضافا الى المجد ، وصفة للنعم ، وفي ذلك يقول : (30)

ألبست فوق بياض مجدك نعمة بيضاء حلت في سواد الحاسد

كما ورد اللون الأسود مضافا للحسد وصفة له ، وجاء اللون الأبيض صفة للحسب الرفيع ، أما الأسود فكان صفة للمنايا في قوله : (31)

ما إن ترى الأحساب بيضاء وضحا إلا بحيث ترى المنايا سودا

والأبيض عنده يأتي للتعبير عن الإنتصارات والفتوح الجليلة كما في قوله : (32)

ليهنك ذكر أيام توالت بيض من فتوحك غير سود

والبياض صفة للوجوه المستبشرة ، فوجه الممدوح أبيض وكرمه أبيض في قوله : (33)

من القوم جعد أبيض الوجه والندى وليس بنان يجتدى منه بالجعد

ومثله قوله : (34)

من أبيض لبياض وجهك ضامن حين الوجوه مشوبة بســواد

ويلاحظ أن اللون الأسود يرد ذكره مقرونا باللون الأبيض غـالبا ، ويعبر عن صفات منافية لصفات اللون الأبيض ، ونجده أحيانا يعبر عن اللون الأسود دون أن يأتي مـقرونا باللون الأبيض ، وفي ذلك يقول ، وقد جعله صفة للأيــام الكئيبـة البائسة : (35)

عــادت أيامه مســودة حتـى تـوهـم أنـهـن لــيالي

أما اللون الأخضر فيأتي صفة للأماني كما في قوله : (36)

رجعت المنى خضرا تثنى غـصونها علينا وأطلقت الرجاء المكبلا

والأخضر لون السحب لدلالته على الخير والخصب والنماء ، وفي ذلك يقول : (37)

كم أهدت الخضراء في أمحالها للأرض من تـحف ومن ألطــاف

ويضيف الخضرة الى المعروف فيلونه باللون الأخضر ، وهو ها هنا دلالة على الشكر ، والأجر ، والثواب ، فيقول : (38)

ومن الحظ في العـلا خضرة المعــ ــروف في الجمع والإفـراد

وجعل اللون الأخضر صفة للزمان لأستحضار معنى الخير ، والغنى ، فهو صفة لمعنى ، يقول واصفا الممدوح : (39)

تــذكرت خضرة ذاك الـزمان لديــه وعمـران ذاك الفــناء

لقد كثر استخدام اللون الأخضر عـند أبي تمام لمعاني الخصب والرخاء ، والخير ، والبهجة ، والعطاء ، وكرم الممدوح ، وملكه ، وعطاياه ، وأخلاقه . يقول في بعض مدائحه وقد جعل اللون الأخضر صفة لملك الممدوح ، والأبيض صفة لدولته : (40)

وجـدوا جناب الملك خضرا واجتلوا هــاروت فيـه كأنــه هـارون

في دولــة بيضاء هـارونيــة متـكنفـاها النصــر والتمــكين

وقوله كذلــك : (41)

لكـم ساحة خضراء أنـى انتجعـتها غــدا فـارطي فيها صدوقـا ورائدي

أما اللون الأحمر فـقـد جاء رمزا للموت ، والقتل ، وصفة للحرب والقتال والمنــايا، كما في قــوله : (42)

فإن المنايا الحمر والسود كلها عـلى الدارعين المعلمين عـقـائده

وقوله كذلك : (43)

وملحــبا لاقى المنية حاسرا والموت أحمــر واقفـا بحيــاله

وقوله كذلك : (44)

وكتـيـبة كتـبت لها أرواحـــها واليوم أحمــر من دم مصقــول

واللون الأحمر جعله أبو تمام لونا الموت لإستحضار معنى الحرب والجهاد ، والقتال ، كما جعل اللون الأخضر لونا لثياب الموت كذلك ، ولكن لإستحضار معنى الرضا ، والنعيم ، والجنة ، والشهادة في قــوله : (45)

تــردى ثياب الموت حمرا فما دجى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

ويلاحظ الحضور القوي للونين : الأحمر ، والأخضر في الصورة ، إذ استطاعت امتداداتها اللونية أن تخيم على أجواء الصورة ، والتركيب وتعطيها أجواء مختلفة جديدة، كما ساعدت بعض المفردات في البيت على تحقيق بعد لوني تعدى مستوى الإحساس المباشر البسيط الى الإدراك العميق . كقوله : " ثياب المــوت " " دجى ، الليل ، سندس " .

وبذلك نستطيع القول أن اللون يتكشف رمزه من خلال المقتربات اللونية التي تتمحور حوله وتدفع باتجاه رمزيته . (46)

فاللون الأبيض لا تتحدد قيمته اللونية ، ومستواه الرمزي إلا من خلال مقترباته المتمثلة بـ " أفياء المنى ، الفتوح ، المواهب ، النصر ، الجود ، الشهب ، الأمجاد النعم .... " .

واللون الأخضر كذلك لا تتحدد قيمته اللونية ، ومستواه الرمزي إلا من خلال مقترباته المتمثلة بــ " الأماني ، الرجاء ، هدية الأرض ، جناب الملك ، الغصون تنثني ، الأرض تنتجع ، سندس ..... " .

واللون الأحمر تتحدد قيمته اللونية ومستواه الرمزي من خلال مقترباته المتمثلة بــ " المنايا ، الموت ، الدماء ، الكتائب ، ثياب الموت ..... " .

واللون الأسود تتمثل مقترباته عند الشاعر بــ " الجوع ، الأيام الكئيبة ، الدجى الحاسد ، المنايا ..... " .

2 ـ يستخدم اللون للدلالة على التوافق ، والتناسب بين شيئين محسوسين ، أو للمقارنة بين شيئين يصلح اللون أن يكون رمزا ودليلا عليهما جميعا ، كما في قوله مقارنا الممدوح بالربيع الأخضر : (47)

فـما الربيع على أنس البلاد بــه أشد خضرة عــود منه في القـحم

فقد أشار الى توافق الممدوح والربيع في الإخضرار ، واللون الأخضر هنا دليل أو رمز للخصب ، والعطاء ، والخير ، ويمكن أن يتحول الكلام الى المعادلة التالية :

الدليل
الربيع = الممدوح ـــــــ الإخضرار
الرمز

دليل التناسب
المحسوس الأول = المحسوس الثاني ـــــــ اللون الأخضر

وفي قــوله : (48)

وبــوجنتيه بـدائــع للجلنـار ضــرائــر

يناسب بين وجنتي الحبيب والجلنار ، ودليل التناسب اللون الأحمر .

الدليل
وجنتــا الحبيب = الجلنار ـــــــ اللون الأحمر
الرمز

ويلاحظ أن اللون في الصورة الأولى " الأخضر " ذكـر ، أي أن دليل التناسب بين المحسوسين " الممدوح والربيع " موجود ومذكور ، وبذلك فقد ساهم اللون مساهمة مباشرة في رسم الصورة .

أما في الصورة الثانية فإن الرمز أو دليل التناسب والتوافق بين " الوجنة والجلنار" لم يذكر ، وإنما يمكن استنتاجه من مجمل الكلام ، فهو إذن " أي اللون " لم يـذكر مباشرة ولكنه ساهم في رسم الصورة وإعطائها الشكل الواضح .

ويقــول في الغــزل : (49) .

ويقـدح في القلب الحليم بمغرب مشاكل لون الإقحوان المفــلج

فهو يصف ثغرها بأنه أبيض ، ولكنه لا يعبر عن ذلك مباشرة بل يتخذ من الــلون الأبيض دليل مشاكلة وقرب بين المحسوسين وهما : الثغر ، والإقحوان .

وفي إحدى مدائحه يوفق أبو تمام بين أخلاق ممدوحه والربا ، ويتخذ اللـــون الأخضر دليلا لهذا التوافق ، وقـد ذكر اللون فهو ظاهر في الصورة ، ويمكن عـده حدا أولا .

يقـول : (50) .

لا تبعــدن أبدا ولا تبعد فما أخلاقك الخضر الربا بأباعـد

ويقول في الغـزل : (51)

ظبي يتيـه بورده في خــده　　خــد عـليه غـلائل من ورده

فالخد يناسب الورد في صفات ومنها : الصفة اللونية " الإحمرار " ، واللون هنا حــد غــر ظاهر في الصورة ، إنما هو خــفي يمكن استنتاجه من سياق الكلام ، فهو حــد ثـان فيها ، وفي الغــزل يقول كذلك : (52)

قمــر تبسم عـن جمان نابت　　فظلـلت أرمــقه بعين الباهــت

فاللون الأبيض هنا للدلالة على تناسب محسوسين هما : أسنان المحبوب ، والجمان ، وقد اشتركا بلون واحد هو اللون الأبيض ، ولكنه لم يفصح بذكره هنا فكان استخدامه حـدا ثانيا ، أو حدا خـفيا في الصورة . ومثل هذا الإستعمال يطالعنا في وصفه للسحب حينما جعلها تعادل الليل أو الأرض السوداء ، أو رجال بلاد النوبة السود وذلك في وصفه لسوادها ، يقــول : (53)

كالليل أو كاللوب أو كالنوب　　منقــادة لعارض غـــــريب
كالشيعة التفت على النقيب　　آخــذة بطاعـة الجنـــــوب

وفي الصورة التالية يجعل الخدود موضوعا يعادل الورد في احمرار لونه إذ يقول : (54)

أو ما رأيت الورد أتحـفنـا بـه　　إتحـاف من خـطر الصديق ببـاله
وردا كتـوريد الخـدود تلونت　　خـجلا وابيض في بياض فعـالــه

فاللون الأحمر هنا دلالة مشتركة بين الخدود " ساعة الخجل " ، وبين الورد وهو هنا دلالة غير مصرح بها ، ويلاحظ كذلك في البيت الثاني استخدام اللون الأبيض صفة للأفعال الكريمة .

ولو رجعنا الى الأبيات الآنفة الذكر في وصف الفرس نجد أن الشاعر استخدم الألوان دلالة للجمع بين محسوسات متشابهة في قوله : (55)

يكاد يجري الجادي بين ماء عط　　فيـه ويجنـي من متنــه الورس
وهو إذا ما رمـتى بمقـلتـه　　كانت سخاما كأنهـا نقـــس

فعنق الفرس والجادي متناسبان في صفة اللون وهو الأصفر ، ومتنــه والورس متناسبان في صفة اللون أيضا ، ودلالة تناسبهما هو اللون الأصفر كذلك ، وفي الصورة الأخرى

تتناسب مقلة الفرس والسخام في صفة السواد ، فاللون الأسود التناسب ، وهو رمز غير ظاهر ، أي خفي ، وهو بذلك حـد ثان في الصـــورة .

من هنا يبدو أن أبا تمام قـد أدرك قـدرة الألوان على التعبير ، وإيضاح الصور وتقريبها للواقع فاستخدمها استخداما موفقـا ، واستخدم منها ما كان متفقا مع بيـئته الطبيعية ، وما انتشر منها من ألوان .

ومن خلال تتبعنا للألوان المستخدمة عـنده وجدنا أنه يكثر من استـــخدام الألوان : الأبيض ، الأسود ، الأخضر ، الأحمر أكثر من غيرها من الألوان الأخرى فقد استخدم اللون الأبيض في وصف معاني متعددة تتعلق بالخير ، والكرم ، والنقاء ، وافعال الخير ، كما استخدم اللون الأسود استخداما مناقضا لتلك المعاني فكان صفة لمعاني : الحسد ، واليأس ، والحزن ، والغضب .

أما اللون الأخضر فكان فقد استخدمه رمزا للأمل ، والخصب ، والنماء ، والكرم ، وغيرها من المعاني المشرقة .

أما اللون الأحمر فكان عنده رمزا للقتل ، والحروب ، والمنايا . أما غير هذه الألوان فقد استخدم اللون الأصفر وقد لون به أزهار رياضه الربيعية ، وربما ألوان فرسه وناقته .

لقد استخدم أبو تمام هذه الألوان جميعا في كثير من صوره لوصف الطبيعة ، وصوره الأخرى خارج مجال الطبيعة ، وقد كان استخدامه للألوان تأكيدا حرصه على جمال الصورة وكمالها ، وتتبع كل جزئياتها ، كما استعمل أبو تمام الألـــوان استعمالا رمزيا ، فقد استعملها للدلالة على النور ، والظلام ، أو الضوء والظلام ، وهي هنا رموز عامة شاملة تحوي عـددا من آخر من العناصر الرمزية المختلفة ، فمن عناصر النور : الشمس ، والبدر ، والقمر ، والصبح ، والنهار ، والسراج ، والفجر ، واللهب ، والشهب . ومن عناصر الظلام : الليل ، والظلال ، والـــدخان .

إن استخدام هذه العناصر في الصورة توحي بوجود ألوان ، أو أنها توحي بوجود صورة ملونة ، فعناصر الضوء أو النور توحي غالبا باللون الأبيض ، وبعكسه عناصر الظلام توحي باللون الأسود ، ومن ثم المعاني والصفات التي ترمز لها هذه الألوان . ويمكن أن نعد هذه العناصر " قرائن لونية " تبرز في الصورة الشعرية وتعزز في التأثير النفسي للون وتصعد من انعكاساته الحسية ، فلو تتبـعنا هذه المقطوعة وهي من قصيدة لأبي تمام في فتح عـمورية يقول فيها : (56)

غـادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى يشلــه وسطها صبح من اللـهب
حتى كأن جلابيب الـدجـى رغبت عــن لونـها وكأن الشمس لم تغب
ضـوء من النار والظلماء عـاكـفة وظلـمة من دخان في ضحى شخب
فالشمس طالعة من ذا وقـد أفلــت والشمس واجـفـة من ذا ولم تجب
لم تطلع الشمس فيه يوم ذاك علــى بان بأهل ولم تغـرب على عـزب

فنحن هنا أمام لوحة عـامرة بالألوان المنبثقة من الأنوار التي أوحت بها عناصر ضوئية متعددة في الصورة ، نحن هنا أمام صورة متحركة تتجدد فيها الألوان وتتغير ، ومع كل هذا الحشد من الألوان جاءت عبقرية الشاعر إذ أنه لم يصرح بلون واحد منها ، بل جاءت العناصر الضوئية معبرة عن الإشراق والبياض ، فقد ذكر الضحى ، والصبح ، واللهب ، والشمس ، والنار ، ومن عناصر الظلام ذكر بهيم ، الليل ، جلابيب الدجى ، ظلماء ، دخان .... وكإننا في هذه الصورة ندرك من الألوان : الأبيض ، والأسود ، والأحمر ، والأصفر ودرجاتها المختلفة كلها بدت واضحة في لوحة الشاعر التي رسمها لمعركة كبيرة خاضها الممدوح ، وحقق فيها نصرا باهرا .

ويلاحظ كذلك أن الشاعر هنا ـ ولغرض استكمال صورة النصر التي أراد أن يرسمها لممدوحه ـ وظف اللون الأسود ، أور رموز اللون الأسود وهي هنا : "الليل ، الظلام ، الدخان ، الدجى " لخدمة الصورة إذ نجح في قلب الدلالات السلبية لهذه العناصر الى دلالات إيجابية مشرقة من خلال استخدام أفعال وتراكيب تساعد في ذلك كقوله : " غـادلات فيهم بهيم الليل " فالفعل " غادر" هنا أبعد الدلالة السلبية لليل البهيم ، وفي قوله : " كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها " باستخدام الفعل " " رغبت عن " الذي أبعد بدوره الدلالة السلبية للسواد الذي أوحى به الدجى هنا وأدخله في دائرة الدلالات الإيجابية التي استند اليها الشاعر في التعبير عن صورة انتصارات الممدوح .

وإذا ما تجاوزنا هذه الصورة نجد أن أبا تمام أكثر من استخدام الضوء وعناصره المختلفة في صوره كالشمس ، والنجوم ، والقمر ، والشهب ، والفجر ، والصبح ، وقد اقتربت في دلالاتها من اللون الأبيض في قرائن له عبر بها عن الخير ، والكرم والصفاء ، والجمال ، ورمز بها الى العلو ، واللمعان كما في قوله : (57) .

وساعده تحت البيات فوارس تخالهم في فـحـمة الليل أنجـما

وقوله وقد جعل الفجر رمزا لفعل الممدوح ، وصفاته الخلقية ، والخلقية : (58)

إذا ظلمات الليل أسدل ثوبها　　تطلع فيها فجره فتجلت

كما جعل الضوء ، والصبح ، ونور الشمس رمزا لآراء الممدوح السديدة ، وطلعته البهية ، وعطاياه الحميدة إذ يقول : (59)

يعشو إليك وضوء الرأي قائده　　خليفة إنما آراؤه الشهب
والصبح يخلف نور الشمس غرته　　وقرنها من وراء الأفق محتجب

وحينما جاء على وصف عطايا الممدوح ونعمه جعلها مضيئة ساطعة فقال : (60)

إذا ما أبرزت زادت ضياء　　وتشحب وجنتاها في التقارب

أما شمس الضحى ، ونور الصباح فكانا رمزا لنسب الممدوح في قوله : (61)

نسب كأن عليه من شمس الضحى　　نورا ومن فلق الصباح عمودا

وقد استخدم أبو تمام الليل ، وكان قرين السواد عنده فهو يرمز الى ما يرمز إليه اللون الأسود . فالليل سواد ، والصبح بياض كما يتضح في قوله : (62)

جلوت الدجى عن أذربيجان بعدما
تردت بلون كالغمامة أربد
وكانت وليس الصبح فيها بأبيض
فأمست وليس الليل فيها بأسود

ويلاحظ أن الشاعر ولأجل الوصول الى دلالات عميقة للون عمد الى إضافته أو اضافة أحد قرائنه الى لفظة توحي بهذا العمق والشد ة في الدرجة اللونية كقوله : " الليل البهيم " ، " الليل الحالك " ، " فحمة الليل " ، " ليل الدجى " كلها للتعبير عن شدة السواد ، وعمقه ، وقوة دلالته .

من هنا يمكننا أن ندرك بأن نظرة أبي تمام الى الألوان لم تقف عند هذا الحد ، ولكنها امتدت الى منافذ ، فقد حاول الشاعر أن يلون صوره بألوان واضحة ، ويعطيها تدرجا لونيا يسهل إدراكها ، ويكشف عن نصاعتها ولمعانها لتتضح معالمها ، وتتجلى جوانبها ، فكثرت عنده الصفات " نقي اللون " ، " ناصع" " ذو رونق " ، " متألق " ، " فاقع " ، " أشد حمرة " ،

" أشد صفرة "مصفر ومخضر ، ومحمر " . فهذه العبارات كلها أضفت طابع الدقة ، والوضوح على الاستعمالات اللونية عند الشاعر ، ومنحتها قدرة أكثر على التعبير ، ومنحت الشكل الموصوف هيئة أوضح ، ورسمت له صورة يكاد اللون أن يكون السمة الطاغية فيها .

هـوامش البحث

1 - الحيـوان ، الجاحظ : 3 / 132 .
2 - سايكولوجية إدراك اللون والشكل ، قاسم حسين صالح : 5- 6 .
3 - المصدر نفسه : 6 .
4 - الفن والأدب ، لويس هورتيك : 908 .
5 - الشعر العربي المعاصر قضاياه الفنية والمعنوية ، عـز الدين اسماعيل : 130
6 - الشعر والرسم ، فرانكلين روجرز : 53 .
7 - الألوان وإحساس الشاعر الجاهلي بها ، د . نوري القيسي : 76 .
8 - المصدر نفسه : 78 .
9 - التشكيل اللوني في الشعر العراقي الحديث ، محمد صابر عبيد : 169 .
10 - أبو تمام الطائي حياته وشعره ، د . محمد البهبيتي : 211 .
11 - الديوان : 2 /557 . والجيدر : القصير ، الجبس : الجبان الجافي ، عـجس : مقبض الفرس ، هاديه: عنقــه ، الصلا : عـرق في الأفخاذ ، جلس : ثابتة في الماء ، الجادي : الزعفران ، الورس : نبت أصفر ، السخام : الأسود ، نقس : مداد ، بـرس : قطن .
12 - الديـوان : 2 / 538 .
13 - معجم البلاغة العربية مادة " تدبيج " وجاء فيها :
التدبيج : أن يذكر في معنى المدح أو غيره ألوانا لقصد إيجاد الكفاية في تلك الألوان أو بعضها ، أو لقصد التورية كذلك ، وأراد بالألوان ما فوق الواحد ، وهو داخل في الطباق لأن الألوان أمور متقابلة فهي جزئية من جزئيـات الطبـاق .
14 - الديوان : 3 / 297 .
15 - الديوان : 1 / 198 .

16 - الديوان : 1 / 442 .

17 - الديوان : 1 / 432 .

18 - الديوان : 3 / 625 .

19 - الديوان: 3 / 554 .

20 - الديوان : 1 / 538 .

21 - الديوان : 3 / 562 .

22 - الديوان : 2 / 109 .

23 - الديوان : 1 / 556 .

24 - الديوان : 1 / 506 .

25 - الديوان : 3 / 53 .

26 - الديوان : 3 / 605 .

27 - الديوان : 3 / 605 .

28 - الديوان : 1 / 273 ، وينظر الديوان : 1 / 481 .

29 - الديوان : 3 / 555 .

30 - الديوان : 1 / 400 .

31 - الديوان : 1 / 408 ، وينظر الديوان : 1 / 420 .

32 - الديوان : 1 / 444 .

33 - الديوان : 1 / 491 .

34 - الديوان : 1 / 496 .

35 - الديوان : 2 / 303 .

36 - الديوان : 2 / 307 .

37 - الديوان : 2 / 87 .

38 - الديوان : 1 / 483 .

39 - الديوان : 3 / 234.

40 - الديوان : 3 / 40 .

41- الديوان : 1 / 462 .

42 - الديوان : 1 / 506 .

43 - الديوان : 2 / 279 .

44 - الديوان : 3 / 323 .

45 - الديوان : 3 / 297 .

46 - التشكيل اللوني في الشعر العرقي الحديث : 170 .

47 - الديوان : 2 / 348 .

48 - الديوان : 3 / 418 .

49 - الديوان : 1 / 211 .

50 - الديوان : 1 / 399 .

51 - الديوان : 3 / 409 .

52 - الديوان : 3 / 395 .

53 - الديوان : 3 / 548 .

54 - الديوان : 2 / 278 .

55 - الديوان : 1 / 556 .

56 - الديوان : 1 / 194 .

57 - الديوان : 2 / 410 .

58 - الديوان : 1 / 295 .

59 - الديوان : 1 / 195

60 - الديوان : 1 / 198

61 - الديوان : 1 / 203

62 - الديوان : 1 / 278 .

مصـادر البحث

1 - أبو تمام الطائي حياته وشعره ، د. محمد نجيب البهبيتي ، القاهرة ، ط 2 ، دار الفكر ، 1970 .

2 - الألوان وإحساس الشاعر الجاهلي بها ، د . نوري حمودي القيسي ، مجلــة الأقلام ، السنة الخامسة ، الجزء الحادي عشر ، تموز ، 1969 .

3 - التشكيل اللوني في الشعر العراقي الحديث ، محمد صابر عبيد ، مجلة الأقلام

بغداد ، العدد 11 – 12 ، 1989 .

4 - الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مطبعة مصطفى البـــابي الحلبي ، القاهرة ، 1998 .

5 - الديوان ، شرح الصولي ، تحقيق : خلف رشيد نعمان ، بغداد ، وزارة الإعلام سلسلة التراث ، 55 ، 1977 .

6 - سايكولوجية إدراك اللون والشكل ، قاسم حسين صالح ، بغداد ، وزارة الإعلام سلسلة دراسات ، 305 ، 1982 .

7 - الشعر العربي المعاصر قضاياه ، وظواهره الفنية والمعنوية ، د . عــز الدين اسماعيل ، بيروت ، دار العودة ، ط3 ، 1983 .

8 - الشعر والرسم ، فرانكلين روجرز ، ترجمة محيي مظفر ، بغداد ، دار المأمون 1990 .

9 - الفن والأدب ، لويس هورتيك ، ترجمة : بدر الدين قاسم ، دمشق ، 1965 .

10 - معجم البلاغة العربية ، د . بدوي طبانة ، منشورات جامعة طرابلس ، ليبيا ، 1975 .